اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصل التاسع

وكنت وصلت إلى أشد الهاوى ظلاما عندما دفعنى اليأس وثورة الشباب إلى فعلة قررت اتجاه حياتى

كنت كتبت إلى عشيقتى أننى لا أريد أن أراها بعد، فقمت بما عاهدت النفس عليه؛ غير أننى ما امتنعت من تمضية الليالى تحت نافذتها جالساً على مقعد أمام بابها لأراها تلوح لى كالخيال من حين إلى حين بين منفرجات ستائرها

وبينما كنت فى إحدى الليالى جالساً على عادتى وقد تملك الألم كل مشاعرى، رأيت عاملاً يسير على الطريق فى ساعة متأخرة وهو يترنح سكراً ويتمتم بكلمات لا تفهم تتخللها هتافات نشوة وحبور. ووقف هذا العامل بغتة وأطلق صوته مترنماً ثم عاود السير ورجلاه تقودانه تارة إلى يمين الطريق وتارة إلى شمالها حتى بلغ مقعداً موجهاً لمقعدى أمام بيت آخر فانطرح عليه، وبعد أن تقلب برهة على ساعديه استغرق فى السكرى

وكان الشارع مقفراً والهواء الجاف يهب على الأرض فيثير غبارها، وكان القمر فى كبد السماء الصافية، يرسل أشعته الفضية على الرجل النائم. ولم يكن هنالك أحد سوانا، أنا والنائم الثمل الذى لم يكن يشعر بوجودى وهو يتوسد الحجر القاسى كأنه على فراش وثير

وشعرت بأن حال هذا الرجل زادت فى آلامى، فتمكنت من مبارحة مكانى الذى ما كنت لأبرحه، وما كنت لأستفيد من وجودى به لأطارق الباب حتى ولو أغريت على ذلك بمملكة وتاج، وذهبت إلى قرب هذا الرجل النائم أتفرس فيه وأقول فى نفسى:

ما أعمق نومه، لا ريب أن رقاد هذا الرجل لا يقلقه شىء من الأحلام، ولعل زوجته تفتح فى هذه الساعة لجار لها باب المسكن الوضيع. إن أثواب هذا الانسان عبارة عن أطمار بالية، وقد نحل خداه وتجمدت يداه، فمن يكون هذا المخلوق إن لم يكن واحداً ممن لا يجدون كل يوم كسرة خبز يقتاتون بها، فهو إن نهض غداً من نومه ستعاوده جميع همومه وتجتاحه جميع مصائبه، ولكنه هذا المساء كان يملك بضعة دريهمات مكنته من الدخول إلى حانة فابتاع النسيان لأوجاعه. لقد ربح هذا الرجل فى مدى أسبوع ما أناله ليلة رقاد هنىء. ولعله حرم بذلك أطفاله عشاء ليلتهم، ولكنه الآن عنآى من آلامه، فلرفيقته أن تخدعه ولصديقه أن يلج مسكنه الحقير كاللص، بل لى أنا إذا شئت أن أضرب على كتفه لأقول له: إن عدواً يتهدد حياته، وإن النيران تلتهم مسكنه، فانه لينقلب على جنبه الآخر ويعود مستغرقاً فى نومه

وذهبت أذرع الشارع بخطوات واسعة قائلا:

وأنا . . . وأنا . . . وأنا المحروم لذة النوم، وفى جيبى

من المال ما يكفي لتنويم هذا الرجل سنة كاملة ، يسودني الغرور بل الجنون فأترفع عن دخول الحانات ، وأتجاهل أن التعساء يدخلونها ليخرجوا بالسعادة من بين جدرانها

يا لله ! إن عناقيد من الكرمة تعصرها الأقدام كافية لتبديد أحلاك الهموم ، ولتقطيع الأشراك التي عدها روح الشر على مسالكنا . إننا نعول كالنساء ونتألم كالشهداء ، فيخيل إلينا حين تساورنا المصائب أن العالم قد تهدم على رؤوسنا فننطرح منتحبين كما انطرح آدم أمام الباب الموصد يبكي النعيم المفقود ، في حين أنه ليس علينا إلا أن نمد يدنا إلى الكأس لأطفاء لهب أحشائنا ، وشفاء أوسع جرح فتحته فيها الحياة . ما أحقر هذه الهموم التي تداوى برشفة من مثل هذا الدواء !

إننا لنعجب من أن العناية الآلهية لا ترسل جميع ملائكتها لتنصت لابتهالاتنا ، وما العناية بحاجة إلى إرسال طغام أملاكها إلينا ، فهي قد رأت أوجاعنا وما خفيت عنها شهواتنا ، وغرور روحنا الساقطة وما يحيق بنا من غمرات الآلام فاكتفت بأن تنبت ثمرة صغيرة سوداء تتدلى على جوانب طريقنا .

إذا كان هذا الرجل ينام ملء جفونه فلماذا لا أنام أنا مثله ملء جفوني

لقد يكون مزاحمي متوسداً فراش خليلتي الآن فيخرج منه عند الفجر ، وتشيعه هي حتى الباب فينظران إلي وأنا أغط في نومي على هذا المقعد فلا أنتبه لصوت قبلاتهما ؛ وإذا ما ضرباني على كتفي فانني أنقلب على جنبي الآخر واستمر في الرقاد

وتحكم المرح فيّ فذهبت مفتشاً عن حانة أستقر فيها ، وكان نصف الليل مرّ وأقفلت أكثر الحانات ، فثار ثائري وقلت في نفسي لماني لن أفوز حتى بهذه التعزية ، فكنت أتراكض من باب دكان إلى باب دكان آخر هاتفاً :

— أريد خمراً . . أريد خمراً . .

واهتديت أخيراً إلى حانة مفتوحة ، فطلبت زجاجة خمر وجلست أكرعها دفعة واحدة دون التفات إلى نوعها ، واتبعت الأولى بثانية وبثالثة ، فكنت أقلب الكأس تلو الكأس مكرهاً ، كمريض يتجرّع دواء فرض عليه فرضاً لأنقاذ حياته .

وما مضت برهة حتى شعرت بأبخرة هذا الشراب — الذي كان ولا شك مغشوشاً — تتصاعد إلى رأسي وتورثني السكر فجأة ، فيتوالى على ذهني الصفاء والاضطراب ، حتى فقدت قوة التفكير ، فشخصت بأبصاري إلى مافوق كأنني أودع شعوري بنفسي ، وتراخى ساعدي على الخوان فلم أستطع تحريكهما . وعندئذ لاحظت أنني لم أكن منفرداً في الحانة إذ رأيت في طرفها كتلة رجال تجلى القبح في وجوههم الشاحبة ، وتعالت النبرات الشاذة في أصواتهم ، وكنت أرى من أثوابهم أنهم ليسوا من العامة ولا من متوسطي الحال وكل ما فيهم يدل على أنهم من أحقر الطبقات ، من الطبقة التي لا مكانة لها ولا ثروة حتى ولا مهنة سوى مهنة البطالة الدنيئة ، من الطبقة التي لا تنتمي إلى الفقراء ولا إلى الأغنياء وقد انتمى إليها بؤس الفقر ورذيلة الغنى

وكان بين أيدي هذه الجماعة ورق قذر للميسر ، وكان الخلاف قائماً بينهم فيخنقون أصواتهم في مجادلاتهم ؛ وكان بينهم فتاة غضة الصبا ، بهية الطلعة ترتدي أثواباً نظيفة ، وليس في مظهرها مايشبه من حولها من الناس سوى صوتها الأبح الذي كان

يتعالى كأنه صوت منادٍ امتهن المناداة فى الأسواق ستين سنة . وحدّقت هذه الفتاة فىّ ، وقد أدهشها ولا ريب وجودى فى هذه الحانة ، وأنا مرتدٍ ما أرتديه من أنيق الأثواب ؛ وما لبثت أن تقدمت نحو مجلسى وعنـد ما رفعت الزجاجات الثلاث عن الخوان ، ورأتها فارغة افترّ ثغرها عن درّ نضيـد فقبضت على يدها ورجوتها أن تجلس قربى فجلست مسرورة ، وطلبت أن يحضر الخادم لها العشاء .

وحدّقت فى الفتاة صامتاً وعيناى مغرورقتان بالدموع ؛ فسألتنى عما يحزننى ، وما كنت قادراً على إيراد الجواب ، فهززت رأسى كأننى أريد أن أطلق القطرات الحائرات من مدامعى ، فتساقطت على خدىّ . وأدركت الفتـاة أننى أكتم أمراً مؤلماً فما حاولت اكتشافه ، بل أخرجت منديلها وهى تتناول طعامها لتمره على وجهى آناً فآناً

وكان فى هذه الصبية شىء لا يحدد إلا بأنه مزيج من أخشن الأشـياء وألطفها ؛ وقد تغلغل العطف فى حشاشها ؛ فوجمت حائراً فى تقديرها . ولو أنها كانت التقت بى فى شـارع ومدت يدها إلى لتراجعت عنها مشمئزاً ؛ غير أننى وأنا فى حالتى كنت أرى من الغرائب أن تتقـدم نحوى فتاة ما رأيتها من قبل فتجلس صامتة إلى خوانى وتتناول طعامها أمامى ثم تجفف مدامعى بمنديلها ؛ لذلك بت أمامها واجماً ثائراً مخلوباً

وسمعت صاحب الحانة يسائلها عما إذا كان لها معرفة بى . فأجابته إيجاباً وطلبت ألا يتدخل أحد فى أمرى . وبعد قليل من الزمن انصرف اللاعبون وأقفل صاحب الحانة أبوابها من الداخل ثم انسحب إلى غرفته الخاصة ، وهكذا بقيت لوحدى مع الفتاة وكانت هذه الحوادث التى أثرتها بما فعلت وأنا مستسلم لليأس ، قد مرت بسرعـة حسبت معها أننى أشاهد حلماً ، فاضطربت أفكارى حتى حسبتنى جننت أو استولت علىّ قوة مجهولة

وصحت بالفتاة فجأة : من أنت ، وما تريدين منى ؟ وأين عرفتنى من قبـل ؟ من كلفك بمسح دموعى ؟ أهذه واجبات مهنتك ؟ وهل تظنين أننى أرضى بك ؟ . . إننى لن أمسك بأطراف أناملى . ما ذا تفعلين هنا . ؟ أجيبى ، أمالاً تطلبين ؟ . وبأى ثمن تبيعين إشفاقك . ؟

ونهضت طالباً الخروج ؛ ولـكننى شعرت بأن رجلى لا تقدران على حملى ؛ وأن غشاوة أسدلت على عينى ، ونفدت قواى فارتميت على مقعد مستطيل عثرت به

أخذت الفتاة بيدى وقالت : أنت متألم . . . لقد شربتَ كما يشرب الأطفال أمثالك فما عرفت ماذا فعلت . . انتظر على هذا المقعد إلى أن تمر عربة . . قل لى عنوان أمك لأرسلك إليها

ثم تضاحكت قائلة : إذهب إلى بيتك ما دمت قبيحة فى نظرك . . .

والتفت إليها وهى تتكلم ، وما أعلم إذا كان السكر أرانى ما رأيت ولم أتبين اذا كان ضلالى سبق هداى أم هداى سبق الضلال ، فرأيت فى وجهها صورة لوجه خليلتى ، وعند ذلك شعرت بصقيع الجليد فى أعضائى

إن الانسان ليشعر أحياناً بارتعاش فى شـعر رأسه ، ويقول السذج إن ذلك دليـل على مرور ملاك الموت ، وما كان الموت قد مر على رأسى بل هو داء العصر ، وما كانت هذه الفتاة إلا ذلك الداء بعينه تجسم فيها شاحباً هازئاً بـنبرات الصوت الأبح وجاء يجالسنى فى زاوية من هذه الحانة

الفصل العاشر

وما كدت ألحظ مشابهة هـذه المرأة لمشيقتى حتى اجتاحت دماغى فكرة فظيعة لم أجد بداً من تنفيذها

وكانت خليلتى فى أوائل عهـد غرامنا تأتى خلسة إلى غرفتى للاجتماع بى ، فكنت أملأ هذه الغرفة أزهاراً وأضرم النار فى الموقد ، وأعد العشاء ، وما كنت أغفل عن تزيين السرير وإعداده للحبيبة المنتظرة

ولـكم شخصت الى هذه الحبيبـة الساعات الطوال وهى جالسة على المقعد أمام المرآة ، وكلانا صامت يناجى الآخر بخفقان فؤاده ، فكنت أراها كملـكة من عالم الجن تحول الى جنـة هذا المسكن الصغير حيث أرقت كثيراً من الدموع . ولـكم تألقت بروعة جمالها بين هذه الجـدران الأربعة الحزينة والرياش القديم ، وقد تبعثرت حولهـا كتبى وأثوابى

وكان تذكار هذه الليالى لا يفارقنى لحظة منذ فقدت بهجتها ، فكانت كتبى وجدرانى تناجينى بهذه الذكرى وأنا مسهد مفجوع فتزهقنى حتى أذهب هارباً منها الى الشارع نافراً من سريرى الذى لم أكن ألجأ إليه إلا لأذرف عليه الدموع

اقتدت هذه الصبية الى غرفتى وأجلستها على المقعد ، محولاً ظهرها نحوى وأبقيتها عليه وهى نصف عارية ، ثم شرعت أرتب كل ما حولها على النمط الذى كنت اخترته فى أعمق الليالى ارتساماً فى خيالى

إن لذكريات السعادة صورة واحدة تتغلب على سائر صورها ، فهى خيال يوم أو ساعة فاقت سواها فى جمـال المؤثرات فتبقى كأنها الأنموذج المستقر ، ولـكل إنسان فى حياته ساعة وقف فيها صارخاً : إضرب سهماً مذهباً فى عجلتك الدائرة ، أيها الزمان

وبعد أن تم ترتيب الغرفة طبقاً لما ذكرت أوقدت ناراً ، وجاست القرفصاء أكرع كأس يأسى حتى الثمالة ، وأسبر صميم فؤادى لأشـعر بتململه وانقباضه ، وكنت أستعيد فى ذهنى أنشودة تيرولية كانت تتغنى خليلتى بها وهى :

كنت فى روض دلالى زهرةً فيهـا ضِرامْ
أحرق المشقُ جمالى هكذا يقضى الغرامْ

وكانت نبرات هـذه الأنشودة ترن فى أذنى كأنها صرخة تتمالى فى قفار قلبى ، فأناجى نفسى قائلاً : هذه هى سعادة الانسان . هـذه هى جنتى أصبحت صبية من بنات المواخير ، وهل خليلتى أفضل منها ؟ هـذه ثمالة الـكوثر الذى نحتسيه ، هذه جيفة الغرام ...

وأطلقت الفتاة الشقية صوتهـا بالانشاد إذ سمعتنى أتمم بأنشادى ، فملت وجهى صفرة الموت إذ سمعت عواطفى نفسها تنشد هذا الصوت الأجش المتعالى من فم فتاة تشبه من أحببت ، فكأن هذا الصوت هو الفحشاء تفرغ فى صدر نوّرت فيه أزاهر الشباب ... وخيل إلى أن صوت خليلتى قدأصبح منذ سقوطها شبيهاً بهذا الصوت ، وخطر ببالى ما يحكى عن (فوست) من أنه رأى فارة حمراء تنشب من فم ساحرة عارية كان يخاصرها فى ليلة راقصة . فصرخت بالفتاة : اسكتى ، وهرعت إليهـا فترامت ضاحكة على سريرى ، فانطرحت بدورى إلى جانبها وإذا بى أرى جسدى كتمثال ممدد على لوح مدفن

أى ، رجال هـذا الزمان ، المتسارعين وراء

ملذاتكم فى المراقص والمسارح ، إنكم ستعودون فى آخر الليل إلى مساكنكم لتقرأوا قبل استسلامكم للوسن أشياء من كفر الشيخ فولتير أو مداعبات كوربه ، أو خطب مجلسنا النيابى عن الاقتصاد السياسى ، فأجيزوا لى أن أوجه إليكم هذا الرجاء ، ولكل منكم ما يروّح به عن نفسه رائحة هذه النبتة السامة التى زرعها العقل فى قلب حضارتنا : إذا ما وقع هذا الكتاب الوضيع صدفة بين أيديكم فلا توجهوا إليه بسمة الاحتقار ولا ترفعوا أكتافكم مستهزئين . لا تقولوا وأنتم تخالون أنفسكم فى حرز أمين إن واضع هذه الفصول مصاب بداء الأوهام ، ولا تظنوا أن العقل أو ما تعتبرونه عقلاً هو خير ما فى الانسان من قوى ، وإن حقائق الحياة قائمة على حركة المضاربات المالية وورق الميسر ولذيذ الخمر وصحة الجسم وعدم المبالاة بالسوى ، وعلى فراش وثير تمددون عليه عضلات توترت بالشهوات تحت جلد ناعم يعبق بالعطور

لا تغتروا ، فقد تهب يوماً عاصفة هوجاء على حياتكم الهادئة ، ولقد ترسل العناية الالهية صرصراً على الأدواح الباسقة التى تسقونها من مياه النسيان الراكدة . لستم بمأمن من عثرات الآمال فأن فى أعماق عيونكم دموعاً ، أيها المتحصنون بالجمود ! وأنا أقول لكم إنكم معرضون لخيانة خليلاتكم وما تهتمون لهذه الخيانة اهتمامكم لموت أحد جيادكم ، ولكن اذكروا أن المضاربات المالية معرضة للخسارة وإن أقوى ورقات الميسر قد تصطدم بأقوى منها ، وإذا كنتم من غير فئة المضاربين فلا تنسوا أن سعادتكم وذهبكم وفضتكم مودوعة عند صيرفى قد ينزل به الأفلاس أو ممثلة بقراطيس مالية قد تسقط قيمها ، اذكروا انكم قد تعشقون شيئاً بالرغم من صقيع عواطفكم ، ولقد ينقطع عرق فى أعماق أحشائكم فتصرخون صراخاً يشبه أنين المتألمين . لقد يجيء يوم تشردون فيه إلى الأزقة الموحلة عندما تطلبون ملذاتكم لتستنزفوا فيها قواكم البائرة فلا تجدون من المال ما يبلغكم أياها ، فتذهبون بنظراتكم الحائرة ووجوهكم الشاحبة المخددة لتنطرحوا على مقعد منفرد تحت ظلام الليل

أيها الأنانيون المنتصبون كتماثيل من مرمر ، المتفردون باخضاع كل شيء لتفكيركم ، أنتم الباهون بترفعكم عن اليأس وبعصمتكم فى حساب الأرقام ، إذا ما سطا اليأس عليكم وأخطأتم فى حسابكم يوم يزعزعكم الافلاس ، تذكروا (أبلار) وقد اختطف القضاء منه (هلويز) التى بلغ هيامه بها ما لا يبلغ مشاره حبكم لجيادكم ودنانيركم وخليلاتكم فأن هذا العاشق قد فقد بافتراقه عمن يعبد ما لا يمكن لكم أن تفقدوه أنتم ، حتى وما لا يمكن أن يفقده أميركم إبليس لو عاد إلى الجنة ليسقط منها مرة أخرى . ذلك لأن أبلار قد أحب هلويز حباً لا تقرأونه فى أية جريدة تتصفحونها ولا يلوح حتى بخيال لنسائكم وبناتكم لا فى كتبنا ولا على مسارحنا — ، ذلك لأن هذا العاشق أمضى نصف حياته يلقى قبلاته على جبين الحبيبة الطاهر وهو يلقنها المزامير والأناشيد ، ذلك لأنه لم يكن له سواها على الأرض

تذكروا هذا المبتلى واعلموا أن الله قد أرسل إلى قلبه العزاء والسلوان . فاذا ما تذكرتم هذا العاشق والمحنة التى حلت به فأن كفر فولتير ودعابات كوربه تفقد معناها فى نظركم فتعلمون أن العقل يمكنه أن يشقى الانسان من أوهامه ولكنه